

الإفتتاحية

لماذا فعلنا ذلك كله؟

فوجئ العالم الذي أطمأن إلى أنّ بنيانه الذي تأسس على جبروت القوة والسيطرة والتحكم لم يعد كذلك في مواجهة وباء غير مرئي! عندما فتك الطاعون بملايين البشر في أوروبا قبل قرون عدّة، لم تكن القدرات العلميّة والطبيّة والوقائيّة لدول ومجتمعات تلك الأزمنة على ما هي عليه اليوم من تقدّم في المجالات: العلميّة، والبحثيّة. لقد فوجئ العالم وهو يرى نفسه وقد انكفأ جبروته في مواجهة هذا الوباء! صار رؤساء كبرى «الدول المتقدمة» يُشجّعون الناس على أن يقوموا بحجر أنفسهم في البيوت، وعلى عدم الخروج إلى الشوارع، ومن هؤلاء من دعاهم إلى اختبار مناعتهم بوصفهم «قطيعاً»، ليموت من هو أقلّ مناعة وينجو الأقوى. تغيّرت فجأة حياة الناس اليوميّة، فباتوا مُرغمين على البقاء في المنازل إلى جانب أسرهم، وتوقّف ضجيج المصانع التي كانت تُلوّث الهواء الذي نتشّقه، وقد سبق أن اختلفت الدول الصناعيّة الكبرى في توقيع اتّفاقيّة للحدّ من هذا التلوّث؛ لأنّ بعضهم آثر زيادة الإنتاج، وتشغيل مصانعه دون

اكتراث في انبعاث تلك السموم القاتلة. كما توقفت مئات آلاف الطائرات عن التنقل، وأقفلت شركات السياحة أبوابها، وكذلك فعلت الجامعات والمدارس، وتحول العالم إلى مزيد من التواصل الإلكتروني في مختلف المجالات؛ من البيع والشراء، إلى التعليم عن بُعد، والمؤتمرات والندوات، إلى التواصل الأسري والمجتمعي.

كانت الشكوى قبل سنوات من التأثيرات السلبية للاستخدام المتزايد لوسائل التواصل الإلكتروني على الجوانب النفسية والاجتماعية. لكن الوباء المفاجئ حول تلك الوسائل إلى خشية خلاص. لم يتمكن هذا العالم من ممارسة جبروته وقوته التي كان يتباهى بها، لمواجهة الجائحة التي قلبت حياة الناس رأساً على عقب. لقد تغير كل شيء فجأة! لم يعد بإمكان الوسائل الإعلامية والدعائية حضّ الناس على الخروج إلى الأسواق للتبضع والإنفاق، فقد تحول الخطاب الإعلامي إلى تشجيع البقاء في البيوت وإلى الاهتمام بالوقاية، وبصحة الإنسان خوفاً من انتشار العدوى المميتة.

امتدحت حكومات العالم المتقدم، طوال العقود الماضية، العولمة التي وحدت الأسواق وشبكات الاقتصاد، وروجت لنماذج عالمية غريبة من الاستهلاك. لكن تلك الحكومات نفسها انكفأت فجأة خلافاً لكل ما دعت إليه شعوب العالم؛ لتعمل على حماية نفسها من الوباء، فلم تمد يد العون أو المساعدة لدول أخرى، أو حتى مجاورة، ولم تتعاون مراكز الأبحاث الطبية الدولية فيما بينها لمواجهة الوباء، لا بل وقفت بعض الدول الأوروبية تتفرّج كيف يفتك هذا الوباء بالشعب الإيطالي، وحتى الولايات المتحدة الأميركية تخلت عن ادعاءاتها الكونية في قيادة العالم، وفي التدخل في مختلف شؤونه؛ لتتكفى إلى أولوية حماية نفسها. وهي لم تخجل حتى من قرصنة معدات طبية وقائية مرسله من الصين إلى فرنسا. وها هي الدول الكبرى نفسها، وبدلاً من التعاون «العولمي» بين مراكزها الطبية والبحثية لإنتاج لقاح يحمي البشرية من الوباء تراها تتنافس من دون خجل على من ينتج اللقاح أولاً ويسوقه ويروج له؛ ليتمكن من جني المال، وتكديس الثروة قبل الآخرين.

لقد تعاضم الشعور الوطني في بلدان العولمة نفسها التي سبق وبشروا شعوب العالم طوال العقود الماضية بأنها المستقبل الموعود الذي سيحل من خلال

التجارة وفتح الأسواق، مشكلات الفقر، وعدم المساواة بين الشعوب... لقد أرادوا لتلك العولمة أن تتحوّل من التجارة وتشابك الأسواق إلى مشروع ثقافي؛ لتوحيد أذواق البشر، وأنماط حياتهم... لكن الجائحة المُفاجئة أطاحت بتلك الادّعاءات كلّها. وها هي شعوب العالم تعود إلى هوياتها الوطنيّة والمحليّة، وإلى ممارساتها البسيطة والتقليديّة في حماية نفسها، وكان لافتًا أن يُطلّ الشعب الإيطاليّ يوميًا من على شرفات المنازل في أثناء مرحلة الحجر؛ لينشد بشكل جماعيّ وعفويّ نشيد بلاده، تعبيرًا عن هذه العودة إلى الهوية الوطنيّة، واحتجاجًا على الهوية الأوروبيّة التي لم تقدّم لهم ما يحتاجونه عندما حلّ الوباء.

توقّفت آلة الإنتاج والاستهلاك الضخمة التي كانت تطحن الوقت والإنسان؛ ليكتشف هذا الأخير من جديد دفء الأسرة الذي افتقده عندما كانت قيمة الحياة تقتصر على ما يجري خارج البيت فقط؛ أي على حركة الرّيح، وما يجنيه الإنسان من الإنتاج، والبيع، والشراء، والإنفاق، والاستهلاك، والتنافس. عندما توقّفت تلك الآلة عن الدّوران، اكتشف الإنسان ما كان يفقد إليه في علاقاته مع أفراد أسرته، ومع جيرانه، وحتى مع نفسه. هكذا، اعتقد بعض المفكرين، والفلاسفة، وعلماء النفس الغربيين أنّ مجتمعات ما بعد كورونا لن تكون كما قبله. فالتغيّرات التي فرضتها هذه الجائحة على حياة النّاس اليوميّة، وعلى طريقة تفكيرهم ستؤدّي إلى «ثورة ثقافيّة».

اكتشف النّاس في أثناء «العزلة» التي فرضت عليهم خوفًا من انتقال العدوى، «أننا لا نستطيع العيش من دون الآخرين». كان اكتشاف «الآخر» الذي نحتاج إليه، أمرًا ثقافيًا استثنائيًا في مجتمعات فقدت العلاقة الإنسانيّة مع ذلك «الآخر»، بعدما تحوّل إلى عبء في وجه الحرّيّة الفرديّة التي ستوقّف عندما تصطدم بحرّيّته. لكن- في الوقت نفسه- لن يختفي الآخر «المريب» من الذهنيّة الغربيّة، فهذا هو الرّئيس الأميركيّ دونالد ترامب يسمّي الجائحة التي تردّد في الاعتراف بخطورتها «الفايروس الصّيني»، في تبرير غير أخلاقيّ لخطاب الكراهية ضدّ الصّين التي يعدّها خطرًا إستراتيجيًا يُهدّد الهيمنة الأميركيّة العالميّة وينافسها. كما أراد الرّئيس الأميركيّ- في الوقت نفسه- تأكيد نقاوة «العرق الأبيض» الغربيّ، الذي لا يمكن أن يكون مصدر هذا الفايروس القاتل. لقد

تجاوز الوباء بُعدَه الصَّحِّيَّ الوقائيَّ إلى أبعادٍ أخرى سياسية وثقافية. عرف العالم قديمًا أوبئة مختلفة، مثل: الطاعون، والجذري، والأنفلونزا الإسبانية في العام ١٩١٨م، التي استمرت سنتين وأدت إلى نحو خمسين مليون وفاة في أوروبا... وها هي الجائحة تعود مُجددًا، وتُفاجئ العالم الذي اعتقد أن زمن الأوبئة قد ولى مع ما بلغه العلم والطب من هيمنة وتسيّد. أرغمت الجائحة الناس على البقاء في بيوتهم، وتركوا أماكن عملهم من دون إرادتهم، وتوقفوا عن الخروج، ولقاء الأصدقاء، والسهر، والسفر، وحتى ظروف الموت قد تغيّرت! «لننظر إلى كيفية الدفن! فقد أصبح يتم من دون حضور أحد من الأهل والأقارب والأصحاب! وذلك خلافًا لما نعرفه عن اجتماع من نُحب في مثل تلك المناسبة. كان الموت مثاليًا، ولم يعد اليوم كذلك!»

بدا وكأن الأرض التي نعيش فيها قد أطفأت مُحركاتها بعدما توقفت حركة المصانع، والمواصلات، والنقل، والطيران... ساد الهدوء الذي سوف يسمح للطبيعة أن تتنفس هواءً نقيًا، وللفكر أن يتأمل في كل ما جرى، وفي ما فعلناه في حياتنا، وبات كل شيء لا يعني سوى الخوف والقلق والوقاية؛ لإبعاد شبح العدوى والموت المُتوقع.... لم يعد للأشياء السابقة ولنمط الحياة السابق أي قيمة، أو أي معنى أمام الجائحة التي تُهدّد الحياة.. حتى بات بعض الناس يتساءل: «هل كان تراكم كل تلك الأشياء ضروريًا في حياتنا؟! هل كان من الضروري إيقاظ الأطفال في الساعة السادسة صباحًا حتى يتمكن الآباء والأمهات من الركض، والاندفاع في وسائل النقل، والعمل بحثًا عن إشباع فردي يضاعف الروابط الأسرية?... وهل كان من الضروري الإفراط في زراعات مؤذية؟!»، وهل كان من الضروري تطوير التقدّم المادي على حساب هذه التدايعات النفسانية التي جعلت ميزانية الطب النفسي هي الأعلى من بين جميع الميزانيات الوطنية في فرنسا على سبيل المثال؟ إنها كما قيل: «نهاية الأنموذج الغربي».

عُدَّ الغرب، طوال القرنين الماضيين، أنه هو الإله الذي يتحكّم في كل ما يجري في العالم من صغيرة أو كبيرة، وإليه يعود تقرير مصير الأشياء؛ «لأننا نمتلك تقنية مذهلة نشعر بأننا فوق كل شيء! وأننا نسيطر على كل شيء...» لكن الخوف على المصير الذي باغت العالم مع الجائحة التي فرضت نفسها على أولويات الاقتصاد، والصحة، والتعليم، والاجتماع سوف يجعل علماء

ومفكرين غربيين يقرّون أنّ «الوجود الإنسانيّ ليس فوق الطّبيعة». وأنّ السّيّطرة على كلّ شيءٍ وهُمّ بدّدته الجائحة، ولأنّ ﴿فوق كلّ ذي علمٍ عليمٌ﴾ ستكون الحاجة ملّحة إلى إعادة النّظر في خلل مقولات الحداثة الفلّسفيّة والإنسانيّة والاجتماعيّة التي عُدّت أنّها مكثّفة بذاتها، وتمتلك الإجابات عن مختلف الأسئلة.

طلال عترسي